مأساة نفس!

بقلم فؤاد الشايب

كانت رسالتك الاولى دعوة مغرية ، اعطتني من حماستها وشوقها شيئاً كثيراً . واشهد انني منذ اعوام لم اقع على مثل هذا الصدق والقوّة والعزم في رسائل الاخوان والأصدقاء . فقد انطفأت الشعلة الأدبية في بلاد الناطقين بالعربية ، وغدت التوافه والتوابل بضاعة الكتاب والناشرين فانجرفت في التيار تلك الأدمغة الكبيرة نفسها وشوهدت ، جماجم فارغة ، تطفو في الزبد والغثاء . فاين عناصر الدم والفولاذ في كيان هذا الادب المصاب بكساح الاطفال ؟

ولقد رأى المُقعدون امثالي في ما يرون ، حجة لانعزالهم وانكماشهم فحسبوا في عزلتهم التافهة انهم قد نجَوا من التيار ومثلهم مثل من هرب من الدب فوقع في الجب . واي جب !

اما رسالتك الثانية فكانت بقصرها وخطوطها البارقة ، ولهجتها المعنفة ، كدفقة من رشاش تلطمني بها يد قوية . وبالواقع انني ما زلت احلم ... منذ تلوت رسالتك الأولى ، فما كدت استيقظ وامسح رشاش الماء عن وجهي حتى بدأ جبيني يتفصّد عرقاً بارداً فيه رائحة الخجل منك ومن نفسي .

انا آسف يا اخي اذ انام على رسالتيك ، وفيهما من السياط والأبر ما لا ينام على مثله إلاّ كل فاقد الحس مخبول . وهل ارضى لنفسي من ان اعترف بعجزها ؟ ! بل انني لألذّ هذه الاعترافات احياناً ، كما يلذ اليائس لحناً حزيناً يأتيه من بعيد ، فاذا جاء في صوت يهز كياني وينفخ في طموحي ويقول لي : انت .. ! شعرت بهذه (الأنا) تتلوّن كبعض الحشرات الصغيرة ، يصيبها الدفء وتغريها اجنحة الفراشات السابحة في النور .

انا في حياتي الادبية كجَمَل مقعد ، يعيش على اجترار الرواسب في معدته . وهب انها سبع مِعد .. فقد آن لها ان تفرغ . وإن الجمل ليرتقب مصيره : فأس حطاب تهوي على عنقه ، فتفصل الرأس الحاوي عن المعدة الجافة . ذلك هو مصير الجمال المكسورة ولو كانت من سلالة تلك النجُب التي جاز بها الصحراء من العراق الى الشام بطلنا العربي .

.. وفي حياتي العامة .. انا لست سوى حركة تأكل نفسها ، وتعض بانيابها على كبدها وتغرق . قد تغرق فيما اردت ان تسميه « المنصب الرفيع » . ولكنه غرق على كل حال . ولقد كان المنصب إجهازاً على ما تبقى من رسيس الشعلة المنطفئة . خمسة اعوام وانا اقتطع من جسدي وروحي لألقم هذا الجهاز الرسمي الذي ينتظمني كأي قطعة صغيرة في آلة ضخمة . وفي دورانه المستمر ضيعت قلمي واوراقي ، وأمانيّ . كنت احلم بمجدادبي لا تدانيه الامجادو الوجاهات السياسية والاجتماعية والمالية ، لانه المجد الانساني الاول ، ولكن الجهد الشاق في عملي اليومي ارخى يدي عن عنان طموحي ، واحالني إلى تفاهة رخيصة ما زالت تتخذ اشكالاً تطوّرية داروينيّة وتمر بحلقات ودرجات حتى غدت كما رأيت انت ، منصباً رفيعاً ! فيا لها من سخرية هيفاء جذورها لا تنمو الا في نجيعي ودوحتها لا تنتشر الا فوق حبّتي الميتة .

على انني خلال سبعة اعوام سبقت الخمسة الاخيرة كنت وانا موظف احاول بمناعة ضارية كمناعة هرّة بريّة ، ان الفّ ذاتي بالخمول وارفعها فوق تكالب الموظفين على الرتب والدرجات ، لأبقى في نجوة عن الانخراط في جهاز الدولة ، قطعةً صغيرة تدور على نفسها ، وتنسحق على محورها ، فاظفر بذلك الفراغ الرحب مطاراً لأفكاري ، وميناء لزورقي ، وفسحة من السماء زرقاء استحم بين دوائرها كلما ألقيت اليها بحصاي .

ثم غلبتُ على امري وكلِبْت .. لأن مَنْ هم ورائي عضّوا عقبي .. ورأيت الاقدام تدوسني وتمرّ ...

هبطت من جنتي ، وانحشرت في البشرية الغابيّة . حملت هراوتي واردت ان اقتل خوفاً من أُقتل . واستغلظت آدميتي الجديدة ، وهي آدمية سكان الكهوف ، وحاولت انفلاتاً . على انني عندما أجلت الطرف حولي ، لم أر سوى كل صدر كثّ الشعر وكل ساعدين غوريليّين ، وهراوات ضخمة . ولم اسمع كلمة دهشة او دعوة الى صلح ... اللهم الا من افواه حطمت الهراوات اشداقها ، وخرج اصحابها من المعركة منتوفي الشعر .

...تلك مرحلة هستيرية مررت بها . ومرت بلادي وبلادك وبلاد الله اجمع . ولا ادري اي وحشية اثارتها في النفوس رائحة الشواء البشري من هيروشيما .

يأس من الاصلاح والصلاح . قَرَفٌ من الدعوات الى عالم جديد . هزءٌ بالمثاليات ودعاتها . لقد خرج العالم مسعوراً من حروب التقتيل والتدمير . ومن خرج سالماً برأسه ، يود لو

تطاح دونه ملايين الرؤوس . ولقد اعربت تلك المانفشستيّة السارتريّة ، عن حقائق القرف والهزء والاستهتار والانغماس في سكرة عارمة ، هي سكرة المحكوم بالاشغال الشاقة عشرين عاماً ، يغادر الحبس ذات مساء فلا يطيب له الا ان يعوج على تلك الخمارة القديمة التي ارتكب فيها جريمته الاولى .

اخي

إخالني ماضياً في بثك نجواي وهواجسي . ولكنني اقف وامسك باذيال نقمتي لاستوقفها . اذ لا يحق لي باي لغة من لغات الادب والتاريخ وباي نظرة من نظرات الموضوعية والذاتية ان أقسو بالحكم على الناس في بلادي . فهناك عقدة لا بدّ من جلائها في نفسي عندما أحللها في وسطها ، وثمة وجه ثانٍ للصورة التي عرفتها عني منذ دقائق ، يجب ان تعرفه . ثم أرجو ألا تقذفني بظنك انني خرجت الآن من صدق الشعور إلى سفسطة المنطق ، لأخلق لنفسي الحجج والمبررات ، او أتكيّس بنوع من الايهام لاخدع نفسي والناس معاً . فحديثي لا يزال حديث شعور صادق فأحسن الظن بي واسمع :

لست من جيل مادي . لقد وعيت واقراني الحياة عام ١٩٣٠ وكان زمن نضال رهيب وتأجج وطني شامل . كان الاستقلال والحرية كل ما ننشد ، وكان العالم ينتهي حيث تنتهي سوريا بحدودها . كل شيء ينبض بكره الاجنبي وبالحقد عليه ، فلا مشاريع عمرانية او اقتصادية ، او صناعية ، ولا رجاء في غد لا يجلو فيه الأجنبي او يندثر . والحياة الأدبية ، كانت زاهرة ، لان الادب في وسط لا فعّالية فيه ، عوضٌ عن الفعالية ، وشيء من الهروب المثالي من واقع مظلم الى عالم افضل!

كان الأدب — اقول — عوضاً لا اصلاً ، وألهيةً عابرة لا شغلاً فكرياً . فاذا استطاع الأديب أن يشترك في مظاهرة ، أو يضرب حجراً ، أو يجأر بصوت غليظ ناقم ، أو يقذف بكلمة قاهرة ، نفّس عن كبته ، وأعرب عن ألمه وأمله ، باكثر ما يفعل في مقال أو قصيدة أو قصة .

وكان الاستقلال — والحرب قد انتهت — دعوة عامة إلى العمل ، والجد ، والحركة ، والتعويض عما فات ، واللحاق بموكب المدنية . لقد أفلت العملاق من القمقم ، وراح يملأ الأرض دوياً . لا بدّ أن يسير بساعة ما اجتازه الآخرون بشهور وأعوام ، وإلا ظلّ في مؤخرة القافلة عبداً ذليلاً ، بديلاً عن عبد أسير . وان يكن للأسر حجّته ... فما حجة الذل ؟ !

وانتشرت بلادي في أربعة الآفاق ، تنشىء وتبني وتنطلق . ولقد شادت في سبعة أعوام ما لم تستطع أن تشيده طوال أربعة قرون من حكم عثماني وربع قرن من عهد انتدابي . وطاب لها الظفر وأدركت أن الخطى وحدها لا تدنيها من الغاية ، فلا بدّ أن تنطلق عدواً وقفزاً ، فراحت تتخطى الحواجز ، وتحرق الأشواك ، وتفجر الرواسي ، وتقلب القيم والتقاليد .

وبينما هي تبني ، وبينما يغني كل حجر في البناء اغنية الحرية والسعادة ، وجدت بلادي نفسها امام خطر جديد . فلا بدّ لها ان تبني ولا بدّ ان تحمي ما تبني . فاضطربت سعادتها ، والتوت حريتها ، وها هو الخطر يقرع اسوارها وهي في المقدمة وخط النار ، فيجب ان تحيط كل حجر بسور ، وتحمي كل شبر من ارضها بدرع ، وإلا فلمن يعمل هؤلاء البناؤون ، ولمن يرفعون عمد النهضة ؟ !

الا ويلنا من البرابرة الجدد !

لقد رمانا المستعمرون ، وتجار السلاح بالصهيونية ، وغرسوها شوكة في جُنبنا ، لأن حريتنا المشرقة توشك ان تهدد حياة الاستعمار برفع راية السلام بين المتخاصمين ، اذ عندما نتحرر ففيمَ يتخاصمون ، وحول اي ارض يتكالبون ؟ ! ان الفريسة خلقت وحدها الفرسان ، وعندما تنجو بنفسها . . فلا فروسيّة !

نحن كما ترى — في غمار حركة عارمة صاخبة ، قوامها المادّة . فلا بدّ ان نكون اغنياء ، ولا بدّ ان نكون اقوياء ، وكلا الغنى ، والقوة دعوة الى كل ما هو مادي ، حقيقي ملموس نستطيع ان نطمئن اليه . واذ ينظر الأديب لأول وهلة الى هذه الحركة الصاخبة ، نظرة ريبة وحنق ، لا يلبث ان ينساق في المثالية التي من اجلها تحشد الثروات وتجند القوى ، واذا ما حشدت هذه القوى فمن العار ان يتخلف فئة من الناس ، ويعتصموا بابراجهم ، ويمتنعوا عن دفاع وراء خطوطه كل ما يملكون وما يحبون ، من قيم مادية ومعنوية !

... وتمر بي ايام عصيبة ، وانا مكثور بعملي اليومي ، فيقول لي صديق : الا تصنع شيئاً من الأدب ؟ ! فألوي شفتي ساخراً واصيح : اي ادب يا اخي ! الا ترى اننا نبني عمارات وحصوناً دونها ، فلكل حجر فيها قصة ، ولكل ذرة تراب قصيدة ! اليس لأزيز هذه الطائرة ترعد في الفضاء ، موسيقا رائعة ، تبعث في النفس كل الرضى والراحة ؟ ! وهذا الجيش

بوجوهه السمر الشابّة .. اليس مروره امام عينيك فكرة لملحمة جديدة ، لا مثيل لها في تاريخ ادبي ، وبلادي ؟ ! واي صورة جميلة في بلادي الحبيبة ، لا اقرنها باليد التي ترمي الويل ، واليد التي تصده ، باليد التي تعفر الجمال ، واليد التي تصونه !

أخي سهيل

قد تعذرني اذا رحت اسهب ، ووجدت نفسي مسوقاً لأن احكي لك بسفورٍ سيرة شعب ومأساته . وقد تفهم معي نفسية رجل مثلي نشأ شبابه على شيئين اثنين عندما بدأ قلبه الأبيض يخفق منفعلاً بالحياة حوله : حب لامرتين وامثاله ، وكره السنغال واشباههم !

قد يكون الأدب هوايتي ، وهواي . . وهبتي ، ولكن من انا من الأنس لأنسى الليالي التي روّعت قلبي الصغير ببريق التفجير ، وهدير التخريب ! من انا لأنسى مشهد الحمير تحمل ذات صباح ، الى ساحة المدينة نخبة من مجاهدي بلادي ، فيُرمَون على الأرض اشلاء ممزقة دامية ، ليعتبر بها كل من تحدثه نفسه بثورة او تمرد !

ثم وثم من انا لأنسى صباحاً اغارت فيه طائرات البرابرة الجدد على المدينة ، وراحت ترمي قذائفها ، فأرى جدار جاري يتهدّم ، ويبدو لي من فجوته سرير جارتي الصبية وقد مزّقتها الشظايا في بياض أغطيتها ، وما كادت تستيقظ . . .

من انا لأنسى الليالي السود ورائي . . . والليالي السود أمامي ! وهل أرى في يقظتي ومنامي سوى هؤلاء الأقزام من بابل الجديدة يبنون حصوناً ، ويصنعون سلاحاً ، ولا ينفكون يذهبون ويجيئون في دوار من حماسة جنون ، وشهوة شيطان . عيونهم الحمر على حدودي ، وأرضي وعاصمتي ، وبيتي وأولادي ، وأوراقي ومذكراتي ، وصور ذكرياتي ، وأرواح آبائي واجدادي ، وكل من أحب في هذه الدنيا !

من أنا لأنكر في وجه بائع الحليب من فلسطين يمر أمام بيتي كل صباح ، شبح مستقبلي ومستقبل وطني ؟ ! يمر بائع الحليب من فلسطين أمام بيتي ليبيعني ما فاض عن حاجته من مواد الاغاثة . وقد كان موظفاً مثلي في فلسطين ، وكان له مستقبل في إحدى مؤسسات بلاده . إنه يبيعني الحليب ليشتري خبزاً لثلاثة أطفال تركهم منذ يومين تحت الخيام المنهارة ، بلا خبز ولا أمل . فكم هي المسافة بالأعوام — قل لي — بين مصير أولادي ومصير أولاده ؟ !

ألم تكن الغسّالة التي تأتيني كل أسبوع لتنظف ثيابي ، ربة بيت محترم في يافا قبل أعوام ؟ ان ابنتها يلتهمها السل في أحد المصحات وما كادت تبلغ الخامسة عشرة من سنيها . . . ! وابنتي أنا — إقبال — ان لها من العمر عشرة أعوام . فهل تغدو حبيسة أحد المصحات بعد خمسة أعوام ؟ ! في أحضان من وفي أي جهنم من بلاد الله !

هل تأتيني أنت لاجئاً ، ذات يوم تحمل أمتعتك على ظهرك ، ولا تعرف أين تغمد قلمك . أفي تحرك فتخلص من الحياة . أم في أي عمل حقير تبقى به على حياتك الطويلة التافهة !

هل تأتيني أنت . . . أو أنني أنا الذي أصلك قبل ، مشياً على الأقدام من دمشق إلى بيروت ، وقد دفنت أحد أولادي على قارعة الطريق ، ولا أعلم في أي منصّعةٍ أؤوي البنين وأم البنين ! فهل في أزقة بيروت وأرصفتها مكان بعد للاجئين جدد ؟ وماذا أنت فاعل باحمالي ، وأوجاعي ، وجراحي . . . وهؤلاء الذين علقوا بكبدي كأختام من رصاص ؟ !

ألا تفضل على هذا المصير ، أن تموت في معركة ، وتقتل أولادك من قبل ، إذا لم يكونوا صالحين وقوداً للحرب المقدسة ؟

أيها الأخ الكريم ! قد أكون مريضاً — كما قد ترى — والحق انني مريض ، ولا أستطيع أن أبرأ من هذه اللوثة التي رماني بها شبوب النار حولي وباذيالي ، بينما كنت أظن أنني في أمن وسلام !

أواه ! هات لي الأمن والسلامة ، والفراغ ، أعطك ما شئت من الأدب وفنونه . أوَ لم يكن ازدهار الادب عبر التاريخ ، في أجواء الطمأنينة والرخاء ؟ أوَ لم تكن حماية الدول والملوك والعظماء ، للأدباء ورجال الفن ، نوعاً من سرادق الطمأنينة تضرب أوتاره حول حياتهم ليستطيعوا أن ينقطعوا لادبهم وفنهم ؟ !

بلى ، أن ثمة عبقريات تغذت بالنار والغبار . ولكن ليس في الاتون يصب الحبر على الورق ، ولم يكن للكتّاب بد من الارتفاع إلى قمة الرابية حيث الظل والهدوء ، بعيداً عن النار ، ولو لأمد قصير . أي لا بدّ من الابتعاد عن الحدَث مسافة زمنية ومكانيّة ، تتيح لنا النظر اليه والاحاطة بحقيقته . أما الحدَث نفسه في فورة تفاعله ، فهو يشغل ويحجب ، ولا يمكن تعريفه في فوريته . وإن يستطع المؤرخون والكتاب السياسيون أن يماشوا الاحداث ويكاتبوها في اصطراعها ، فان

ما ينتجونه ليس بالادب مهما بالغنا في إكرامهم . والاديب لا يأتي حدثاً بأدبه إلا على بعد منه في الزمان والمكان ، لذلك عندما يؤرخ الاديب يضع أدباً كبيراً . وان حديث هذا ، ليطول!

أفترى ؟ ألقِ الآن نظرة عامة على هذه الرسالة ، ترَ في كل ما ذكرت لك عن حياتي ، وحياة بلادي ، وحياة الادب حجة مبررة لهزيمتي ، وقعودي ، وانطفاء طموحي الادبي . هل ترى غير ذلك . ودل تقبل بها حجة ؟ وهل أقبل بها نفسي ؟

انني أفلت من النار أحياناً ، ويحملني انساني الجني إلى قمم الروابي الخضر ، حيث العناقيد الخالدة ، تنام على صحون من أوراق الورد ، فيأمر الحصى الفضية ان تطمئن نفسها لفراشي ، ويقول للأنداء ان ترصع جبيني ... وفي جو من شفوف العطر تموّجها النسائم ، يُدخِل عليّ ذكريات حبي وصباي ، يرفلن بكل أرجواني من أمانيّ ويقول لي : اقرأ ... واذ بالدنيا كلّها كتاب مفتوح على دفتين إحداهما في المشرق ، والثانية في المغرب ، وليس وراءهما سوى الهباء والفراغ ، والهاوية !

وإنساني الجني هذا ، يعيش منذ الازل أسيراً في عروقي ، تكبله آدميتي بكل ما لديه من حدود وقيود . وهو عندما يتحرر ، ولا ادري كيف ومتى ، فليس له هم سوى ان يحملني الى تلك الآفاق القزحية البعيدة التي كان يُسَرِّحُ فيها وَعْلُ شبابي المضطرب ، واولى نظراتي الى الدنيا الجميلة ... يوم كانت جدائل الصبايا المدلاة على نهودهن تنظم لي الشعر ، وتسكب في قلبي الخمر والعطر . يوم كنت ابكي على رسائل الحب وانا اكتبها ، ثم ارسلها مبتلّة لتُفصح الدموع حيث تعجز الكلمات ، فتعلّمت كيف ينبع الادب من القلب ، وكيف يتفجر الفكر من الشعور . يوم كنت استيقظ بعد نصف الليل هارباً من فراشي لاستقلّ أشباح الظلام فوق الصخور الموحشة ، واسمع نداءات الليل ، ووسوسات الارواح الغريبة ، فتعلمت كيف تنبعث الاصوات من السكون ، وكيف تنحدر الاخيلة المجنحة من الغيب .

... يوم كنت استقبل مشرق الشمس ساهراً منذ تلاث ليال ، فما إن تمتلىء عيني من الجبال والأودية ، والحراج ، والسهول تنتفض للقاء النور ، حتى أُغفي على حجر وأسلم احلامي لنشوة الرقاد .

فمن يردّ لقلبي هواه ، ولفكري صفاه ، ولنفسي تلك الطمأنينة التي تحررها مني أفاعي الهلع والقلق ؟!

اعطني قوة (لاون) الاثيني لأمزق هذه الثعابين . اعطني قوة الآلهة ! وماذا بيدك انت لي ؟

ابوسع جرعة من الأدب ان تطفيء حُمّاي ؟ وهب انها فعلتْ فكيف اصبر على ارتوائي والناس يتلوون ظمأ حولي ؟ كيف اخون هذه الحُمّى وهي بحاجة إلى جلدي ولحمي وعظامي! كيف اهرب مع الجني ، واترك الدماء تولول في عروقي ؟!

تقول لي اكتب . وها انا ذا قد فعلت . ألا ترى كيف ارتفع وأهبط ، من شاهق الرابية إلى جحيم السعير بين لمحة واخرى ؟ تلك هي نفسي . وقد بسطتها بلا تصنع ولا كلفة . فما حاولت منطقاً ولا انشاءً . بل نثرت افكاري المضطربة كما تواردت على قلمي مع الحبر . وانني لأقرؤها ثانية فألمس اضطرابي صوراً ، صوراً .

اما (القصة) فلا أقربها . انها حرم لن ادخله الا وحدي ، ومن حملتهم على كتفي معي ، لأعيش معهم منقطعاً . وعليّ ان اجالسهم في مطعمي ، ومشربي ، ومهجعي ، بعيداً عن كل دخيل من هواجسي ، ومحيطي ، حتى تأنس بي ارواحهم ، ويدنيني اخلاصي لهم من حقائقهم ، حتى ولو كان مثل دنو الحصيان من حَرَم السلطان . وفيما عدا ذلك لا استطيع إلا ان اكون مزوّراً ، وقاصاً تاجراً . فهات لي الفراغ وامنحني متعة الانقطاع والاخلاص .

انني على يقين — مهما تعاورتني شكوكي — من انني لن اذهب بعيداً مع انساني الجني ، ولو رشّ كل دروبي بالعطر ، ورسم لي الآفاق بريشة من سحر . انني اهوى هذا الاتون المضطرم ، ومَعَادي ابداً إلى تلك النار التي يستعر فيها الالوف من ابناء جلدتي.

يقولون انها نار مقدّسة ولماذا لا ؟ فهي ، اما ان تحيل المحترقين الى رماد ، او الى سيوفٍ لا تلتوي ، وحديد لا يجرؤ عليه الصدأ .

وفي كلتا الحالتين فان البرابرة الجدد لن يجدوا فيها ارضاً تحت الشمس .

والى اللقاء .

دمشق — فؤاد الشايب

صدر حديثاً :

مرآة الضمير الحديث

(الطبعة الثانية)

الدكتور طه حسين

الثمن ليرتان — دار العلم للملايين